توجيه الفرد والامة

— ٤ —

بالنظر لسفر الاستاذ العصامي خارج النجف مدة اربعـــة اشهر واحتفاظـه بمسودات هذا البحث الممتع انقطع نشره خلال هذه المده والآن نعود الى امتـاع القراء بالموضوع نفسه ؟

[البيان]

الانسان وحشي بالطبع مدني بالتطبع

ذهب الرواقيون : ان الانسان خلق والخير ملء إهابه ؛ ثم يصير شريراً بالاحتكاك بذوي الشرور ، فيرتكب الجرائم والموبقات التي لا تقمع بالتربية .

وذهب آخرون : ان الانسان شرير بالطبع ، وينقل بالتربية والتهذيب الى اعتناق الفضيلة ؛ وكل من الرأيين يقوم ببطلان نفسه .

أما الاول فبعد فرض ان الناس كلهم اخيار بالطبع ، يلزم ان لا يكون هناك شرير ابداً ، ثم ان انقلابهم الى الشر لا يخلو امامن انفسهم ، فهم اشرار بالطبع ؛ واما من غيرهم فتلوثهم بالشر من طريق الاحتكاك والتعليم ، يكشف ان الذين علموهم الشر اشرار بالطبـع ، فليس كل من الانسان خير بالطبع ، واما فساد الثاني فكالأول نفسه .

وقال آخرون : ليس شيء من الاخلاق طبيعياً للانسان ولا غير طبيعي ؛ وانما له استعـداد لقبول الخلق بالتربيـة والتهذيب ولكن البرهان يثبت خلاف ذلك ، فان من الانسان من هو متحلي بالفضيلة منذ حداثته ، وحتى آخر لحظة من حياته ؛ وهذا يكشف ان هذا الخلق طبعي له ، وهو اقل افراد الانسان ، يكاد ينحصر ، لا بل انه لينحصر في الانبياء والاوصياء وحواريهم ؛ ومنه من هو شرير منذ نعومة اظفاره ، حتى النفس الأخير من حياته ، وهذا يكشف لنا ان هذا الخلق طبعي له — وبتقريب أجلى —

ان افراد الانسان تظهر اخلاقهم منذ نشأتهم ؛ لا يعرفون كيف يتكتمون بها بروية ولا فكر ، كما يفعل الرجل الذي انتهى في نشوه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه ، فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال التي تضاد ما كان من طبعه فمنهم من له وازع من الحياء منذ دور الطفولة وهو اقل من القليل عـدداً ؛ ومنهم من لا وازع له يردعـــه عن ارتكاب الشرور والموبقات وهو البشر عامتهم — عدا الرسل والاوصياء والحواريين — ويستحيل حصرهم ؛ وهذه هي الوحشية التي فطر الانسان عليها منذ ان وجد على سطح الكرة .

فكان يسكن الغابات والكهوف وفكرته محدودة في امور اولية ، لا تتجاوز دفع الاذى ورد الخطر وفيما يقوّمه للحياة ، أما تعهده بزوجه واولاده ، فلا يستمر اكثر من زمن الحمل ، فاذا وضعت زوجه حملها ؛ ولى عنها بوجهه ، حيث يجد له من يؤنسه في الحياة ، وتبقى الزوجة والاقمار ؛ تعاني ما تعانى من المشاق في تربية اطفالها ، وقد تتجددلها علاقات اخرى بعـد ان يمضي زمن الولادة برجل آخر يقوم عليها قيام زوجها ؛ ويساعـدها بعض المساعدة في شؤون حياتها ، حتى اذا علقت منه ، تزداد علاقته بها الى حين الولادة ، فتتقطع روابطه بها ، فكانت فكرة الانسان لا تسمو الى اكثر من ذلك ؛ ولم يك يستعمل لسانه وسمعه في نمو ادراكه إلا قدر الضرورة اللازمة ، سوى بصره وهو غير كاف لذلك ، وهذا مكن الوحشية الكاسرة من قرارة نفسه ، لأنه لو استعمل لسانه وسمعه في نمو ادراكه لشعر من نفسه بالفوارق التي تميزه عن الحيوانات ، ولما لم يستعملها ، كان معدوم الشعور والادراك ، فلم تحصل له الفوارق ، فكان احدى الكاسرات .

وما سفك الدماء وابادة البشر إلا من اعظم الشرور التي كافحها الدين ؛ وليس الولع في لوغ في الدماء ومحو الانسانية من صفحة الوجود إلا من الوحشية التي نشأت مع الانسان منذ اول يوم من حياته ، حتى استفحل داء الوحشية ، واصبح من المستحيل مكافحته ؛ مهما بلغت الامة من المدنيـة والثقافة ؛ وما اثار حرب السبعين ، وحرب الثلاثين ؛ وغيرها من الحروب التي طحنت البشر برحاها إلا الوحشية نفسها ، ولم تلق الحرب اوزارها بين حين لآخر إلا من الأعياء ونفاد القوى ، ولم تكشر الحرب عن نابها إلا بعد ان يسترد الوحش الكاسر الذي يسمى انساناً —

و ه ، وتعد العدة لافتراس الضعيف ، والمغلوب يحاول الانتقام بعد ان يستجمع قواه ؛ ويعد ويدخر القوة الكافية طلباً بالثار . وما درى هذا الكاسر ان الانتقام يلهب النار .

يقال : ان التربية تمحو الجرائم من لوحة الحياة ؛ وهذا قول لا حقيقة وراءه ؛ فان التربية بلغت اليوم اقصى مراتبها ؛ ولم تمح من القلوب حب الولوغ في الدماء ، فان البشر اليوم سائر نحو الفناء ؛ تحدوه وحشيته الى ارتكاب الفضائع في هذه الحرب المتدفقة بالدماء ؛ لم تزعجه ولولة الأمهات الثكل باولادها ؛ والفتاة المفجوعة بشقيقها أو زوجها ، ولم يرق لدمعة الطفل اليتيم على أبيه ذلك الطفل الذي لم يذنب إلى الاقدار حتى تفجعه بابيه أو كفيله في الحياة .

وهذا الجندي الضعيف تسوقه الوحشية الكاسرة بعصاً من نار الى حرب لا يعرف لها مصدراً غير الوحشية ، ولا مورداً غير الدماء البريئة ؛ ينشب الجندي ظفره في قلب اخيه الجندي ؛ كأنه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، تشفياً من الضغائن والسخائم التي غرستها وحشية البشر الكاسر في القلوب .

ولم تكتف مصانع الموت بما أعدته من المدمرات والمهلكات في الحرب الناشبة على سطح الكرة ، حتى اعدت مثلها للحرب في السماء ؛ بغية ان يدفع الشر بالشر ، وتطفأ النار بالنار ؛ فاستحالت الارض من جراء ذلك لهباً متعالياً ، يلتهم النفوس البشرية ، واخذت مصانع الموت تهدم الحصون والمعاقل والملاجئ ؛ كيلا تبقى حواجز تمنع منجل الموت من حصد الرؤوس ، فاستمر هذا الوحش الكاسر على ايجاد الشر وتكثيره بحجة ابادته ؛ كما استعبد الشعوب الضعيفة بحجة تحريرها ؛ فانسان اليوم هو نفسه انسان الغابات بالامس لا فرق بينهما ؛ سوى انه كان يسكن الغابات والكهوف ؛ واليوم يسكن القصور المشيدة ؛ ولا ينتهي عن ظلم غيره حتى يخاف شره .

ان مكافحة الشر بالقسوة زيادة في قوته ، وكما يسعى الإنسان لإخماد النار بالنار ؛ لا يزيدها إلا ضرما ، لا بل يحيل الارض ذات البحار والانهار والاشجار والازهار والاعشاب والاطيار الى نار الله التي وقودها الناس والحجارة ، كما احالت اليوم وحشية البشر جنة الحياة الى جحيم وقودها النفوس البشرية ، فالشر الذي هو وليد الوحشية الكاسرة لا يقضي عليه إلا بالخير ، ولكن أي طريق ينتهي بنا اليه ؟

تأثير الديانات على البشر

ان الخير الذي نسعى وراءه لنكافح به وحشية البشر ؛ لا يتوصل اليه من طريق التربية ، لأن التربية الصحيحة مفقودة لدينا ، ولا من طريق العلم ؛ لأن العلم المتكفل بسعادة البشر ، قد تحول الى شر ، لا يبقي ولا يذر لواحة للبشر ؛ كما احال الارض الى كرة النار في العصر الراهن ، فلم يهدنا اليه إلا الدين وذلك هو الطريق السوي الذي يهدي الانسان الى صالح الحياة روحية كانت أم مادية ؛ فالايمان هو قوة الحياة ، ولا حياة بدون ايمان ؛ والدين هو الدواء الناجع لعلاج الامراض النفسية ، المؤدية الى العيث والفساد في الارض ؛ ومحو الانسانية من لوحة الوجود ؛ ولكن أي دين قد تكفل بذلك العلاج الشافي ؟

أما الدين الذي يرى غاية الحياة في النفع الذاتي كاليهودية ، فلم تؤد الى نفع عام يخدم الانسان من ناحية الامن والسلام والناحية الروحية .

وأما الدين الذي يرى غاية الحياة لم تتجاوز خدمة الله كالنصرانية ، فانها لم تخدم الانسان إلا من ناحية الحياة الثانية بعد الموت ، فانها كتبت على الانسان الانقطاع في رؤوس الجبال عن الدنيا وزخارفها الى عبادة الله ؛ والانكماش في طاعته ، ويا ليتها بقيت على حقيقتها التي جاء بها المسيح (ع) واحتفظت بجوهرها ، بل غيروا وبدلوا ، وجعلوه ثالث ثلاثة ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . واما الحياة الأولى بما فيها من سعادة وهناء فمحرمة عليه ، لاتباح له الحياة الزوجية ؛ ولا التمتع بالمال والبنين ، بل جل ما سمحت له ، ان يعتكف في زاوية من صومعته في الصحارى أو رؤوس الجبال ؛ ولا يقتات إلا من حشائش الارض .

مضافا الى ذلك فيها ما فيها من الذل والعدوان على الضعيف وذلك صريح ما جاء في الانجيل (لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الأيسر ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فحول له رداءك ايضاً ومن سخرك ميلا فامش معه اثنين .

ومن جواز هذا العدوان والاضطهاد الذي جاء في الفصل الخامس من انجيل متى، نرى انها خدمت وحشية البشر الكاسرة ومن واجب الدين ان يقوم بنفع عام بأن يخدم الانسانية من ناحية الأمن والسلام ، كما يخدمها من الناحية الروحية ؛ لأن السعادة الأخروية مترتبة على السعادة في الدنيا ، وهذه مترتبة على الأمن والسلام، والنصرانية لم تعر أي اهتمام الى هذه الناحية ناحية حفظ الحياة ؛ فكأنها تريد ان لا تبقى خالدة حية ؛ لأن عدم الاهتمام لحفظ الحياة ، يستلزم فناء الانسانية ، وبفنائها فناء النصرانية ، ودين كهذا يجب أن لا يبقى خالداً ؛ لأنه غير صالح لأن يكون دين الانسانية ، كما هو غير صالح للحياة ، لذلك لم يبق من النصرانية إلا اسمها .

ثم انا نراها مجدت الحياة الفردية بوجوب الانقطاع على الانسان ؛ فكأنها جعلت الحياة الاجتماعية محذورة عليه ، وبذلك مثلت الانسان الاول الذي كان يسكن الغابات والكهوف غير انها أسكنته في رؤوس الجبال ، ولما ان مجدت الحياة الفرديه على حياة الجماعة، خدمت الوحشية الكاسرة، فاوجب ذلك استفحالها بدل أن تسعى لاجتذاذها .

أما الدين الذي يعتبر غاية الحياة النفع العام ، وخدمة الله كالدين الاسلامي السامي ؛ فهو العلاج الشافي للامراض النفسية فان وجهة نظره خدمة الانسان في الحياة الأولى والثانية بعد الموت ، وقد جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، ولن تصلح الآخرة إلا بصلاح الدنيا ، وذلك صريح ما جاء عن الامام الحسن بن علي [ع] اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ؛ فهنا جعل العمل للحياة الثانية مترتباً على العمل للحياة الاولى، ولم يكتب على الانسان الاعتكاف في محراب صلاته ليس له الا ان يرعى مع البهائم كالنصرانية ، بل جعله في متسع من الحياة ، ورفاه من العيش ، يتمتع بالخيرات التي اوجدها الله له متى شاء واني شاء .

وقد منع العدوان حفظاً لحقوق الفرد ؛ وصيانة لحرمة الضعيف ، وفرض القصاص ؛ وجعله حقاً شرعاً من حقوق الحاكم ؛ يفرضه حفظاً للحياة ، تخدم الانسانية بذلك من ناحية الأمن والسلام ، وحرم الزنى ، وجعل لمرتكبه حداً ؛ ينفذ من قبل الحاكم صيانة للانساب من الاختلاط الى غير ذلك من الحدود التي لولاها لاختل النظام فتسود الفوضى في الحياة .

وجعل العزة التي أرادها الله لنفسه تاجاً على رؤوس المسلمين وليس من تفاضل بينهم إلا بالتقوى ، وليست التقوى في نظر النصرانية . بل هي ان يمتثل ما أمر به . بان يؤدي واجبا . ولا يرتكب محرما . وجعل العدل في الحكم والمساواة في الحقوق من أهم دعائمه . لا يفرق بين الملك والسوقة . بل يقتص من السيد للعبد . لو بغى عليه بغير حق .

وليس القصاص الذي فرضه الاسلام . والعقاب على ارتكاب الجرائم والآثام . كما تزعم النصرانية . من انه شر والشر لا يدفع بالشر . فان قاتل النفس المحرمة لا يمتنع عن القتل اذا علم انه غير مقتول بمن قتل . والسجن وحده غير كاف لاستئصال امثال هذه الجريمة . والعارق لا يكف عن السرقة . اذا علم ان لا تقطع يده . ولم يعاقب باكثر من السجن اياما معدودات . وما كثرت الجرائم والآثام في العصور الأخيرة الاسلام إلا لعدم القصاص والعقاب الذي شرعه الاسلام . فان الاسلام ما شرع من النظم والتعاليم إلا ما كان خير علاج شاف من الامراض القلبية التي لا مصدر لها إلا وحشية البشر .

فاتم شكل للدين ظهر في تعاليم الاسلام . وأهم ما جاء فيها لا بل ان اعظم هدفا ترمي اليه تعاليمه . هو تتويج القلوب باكليل الفضيلة . وقد أبان منقذ الانسانية الأعظم النبي محمد (ص) علة بعثه حين قال (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) فكان صورة صادقة الى الاخلاق السامية التي ضمنها تعاليمه . فبهذا استطاع المنقذ الأعظم ان يكافح شرور الوحشية الكاسرة .

للعلامة المرحوم السيد محمد حسين الكشواني

الدمع منك يا طرف اجمل ... فانثر به عقدك المفصل
واروِ عن القلب لي حديث ... الهوى فعند الدموع ترسل
انت تسلسلت في التصابي ... وكان قلبي هو المسلسل
فكيف ادعوه رب شوقي ... وآية الشوق منك تنزل
جئت بطرفان دمع عيني ... فقلت يا طرف انت مرسل